مجلة أطراس (601،586) 06 (01) 2025/01/15 ISSN: 2710-8759/ EISSN: 2992-1376

الفعل الكلامي وما ينطوي عليه من أفعال في الخطاب الشعري.

مقاربة تداولية في لامية أبي الطيب المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة الحمداني

The Performative Nature of Speech and its Implications in Poetic Expression: A Pragmatic Approach to Lamiat Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī in the eulogy of Sayf al-Dawlah al-Ḥamdānī's Mother

مهدي مشتة[1]، عبد الرحمن دحماني[2]

[1] جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر

[2] جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر

تاريخ الاستلام : 2024/04/20 ؛ **تاريخ القبول** :2024/12/05 ؛ **تاريخ النشر** : 2025/01/15

ملخص

ترتكز التّداولية كأساسٍ على دراسة اللغة أثناء استعمالها، واستعمالها في سياق التخاطب، وتقوم على مفاهيم عِدة من بينها الأفعال الكلاميّة التي بدأت مسيرتها مع دراسة (أوستين) وطوّرها من بعده تلميذه (سيرل) بإعطائها صيَغها النّموذجية النّهائيّة؛ لتُصبح نواة مركزيّة في الدّرس التّداولي، فالفعل الكلامي بما يتضمنه من أفعال يشكل جانباً مهماً فيها حيث يسهم في تبادل الأفكار والمعلومات بين الأشخاص، وهذا المقال يروم لأن يجيب عن عدة تساؤلات تتعلق بـ(الفعل الكلامي) وما ينضوي عليه من أفعال في الخطاب الشعري مستندين في ذلك إلى لامية (المتنبي) في رثاء والدة سيف الدولة، اذ اقتضت مقاربة هذه القصيدة من جهة (الفعل الكلامي) للوقوفَ على جُملة من الأفعال الإنجازية في القصيدة (الفعل الإخباري، الفعل التعبيري، فعل الرثاء، فعل المدح، فعل التعزية).

الكلمات المفتاحية: الفعل الكلامي ، الخطاب الشعري ، المقاربة التداولية ، لامية أبو الطيب المتنبي.

Abstract

Pragmatics is fundamentally based on studying language in its use and application within the context of communication. It relies on several key concepts, including speech acts, which originated with Austin's studies and were later developed by his student Searle, who gave them their final, standardized form. Speech acts have become a central core in pragmatic studies, as they encompass actions that play a vital role in the exchange of ideas and information among individuals.This article aims to address several questions related to "speech acts" and the actions they encompass in poetic discourse. The analysis draws upon Al-Mutanabbi's elegy, Lāmiyyat al-Ḥijāʾ, composed in mourning for the mother of Sayf al-Dawla. Examining this poem from the perspective of "speech acts" requires identifying a range of performative acts within the poem, including declarative acts, expressive acts, acts of lamentation, acts of praise, and acts of condolence.

Keywords: Discourse, speech act, poetic, pragmatic approach, Umayyad Abu al-Tayyib al-Mutanabbi

الكاتب: [1]مشتة مهدي و [2]دحماني عبد الرحمن، البريد الالكتروني: mahdi.mechta@umc.edu.dz ، dahmani28abdrahmane@gmail.com

مقدمة

لا تزال قصائد المتنبي تحتفظ بمكانتها الفريدة في التراث الشعري العربي، لما تحمله من قوة الأسلوب وعمق المعاني وتنوع الأغراض، ومن بين هذه القصائد، تتألق لاميته في رثاء أم سيف الدولة كأنموذجٍ شعريٍ سامق يعكس قدرة المتنبي على التعبير عن مشاعر الحزن والفقد بأسلوب يزاوج بين الإبداع البلاغي والغنى الإنساني. إنها قصيدة تنبض بالحياة رغم موضوعها المأساوي، ما يجعلها ميدانًا خصبًا للبحث والتحليل.

إنّ استجلاء معالم الفعل الكلامي وما ينطوي عليه من أفعال جزئية تحمل دلالات بلاغية وتداولية في هذه القصيدة يقتضي تجاوز المعنى السطحي للكلمات والغوص في أعماق المواقف النفسية والاجتماعية، وتحويل هذا النص الشعري إلى خطاب مؤثر يحمل رسالة إنسانية عميقة، والكشف عن البنى الخفية التي منحت هذه القوة والتأثير ، فكما هو معلوم أن التداولية كمنهج سياقي بمختلف مباحثها تُعنى بتحليل هذا النمط من الخطابات المكتوبة ،بوصف وظائف الأقوال الكلامية وخصائصها من خلال إجراءات التواصل بشكل عام.

حدود الموضوع وأهميته:

يعدّ الخطاب تعبيرا عن الحياة وحاجات الإنسان المتجددة باستمرار. وأما الإشكال الذي تطرحه المناهج المعتمدة في تأويله فمرده إلى عَدَمِ استنفادِ مقارباتِ هذه المناهجِ المختلفة للخطاب كلَّ ما يمكن قوله فيه؛ وأنّى لها ذلك والخطاب هو الحياة بتناقضاتها وتعقيداتها؟ وهو بحكم طبيعته و وظيفته وتعدد أنماطه –لا سيما الخطاب الأدبي– كان ولا يزال وسيظل منفتحا على مقاربات المناهج التأويلية المختلفة، وتعددِ القراءات دون أن يبلغ أيٌّ منها استنفادَ ما في الخطاب. وهذا ما يؤسس أهمية الموضوع المتناول في هذا المقال بمحاولة لمقاربة "الفعل الكلامي"، في إحدى قصائد المتنبي مقاربة تداولية نروم فيها هذا الفعل وما ينطوي عليه من أفعال في مقدمتها "الفعل الإنجازي"، فهذا التحليل يساهم في إظهار جوانب جديدة من براعة الشاعر، والكشف عن كيفية توظيفه لهذه الأفعال لإيصال مشاعره وأفكاره، مما يعزز الفهم لدوره كمبدع متكامل يجمع بين الجمالية البلاغية والوظيفية التداولية، كما يسد هذا المقال فجوة معرفية في دراسة الشعر القديم من منظور تداولي، حيث يُظهر كيف استطاع المتنبي استخدام الأفعال الكلامية لتوجيه رسائل متعددة المستويات إلى المتلقي، مما يربط بين بنية النص وشروط إنتاجه وتأثيره، لأن التركيز على الأفعال الكلامية الجزئية المُشكّلة للفعل الكلام العام ، يساعد القارئ على إدراك المعاني الخفية والدلالات غير المباشرة التي أراد المتنبي إيصالها في هذه القصيدة ، مما يعمق التفاعل مع النص ويوضح الأثر النفسي والجمالي للأفعال الكلامية في بناء التجربة الشعرية.

إشكالية الدراسة :

انطلاقا ممّا تقدم يمكن صياغة الإشكالية التالية: **ما مفهوم الفعل الكلامي من جهة أنه خطاب مقترن بالقصد؟ وما الأفعال التي ينطوي عليها في لامية أبي الطيّب المتنبّي؟ وأيُّها المقصودُ في الخطاب ابتداءً قبل سواه؟.**

الدراسات السابقة :

– دراسة مزابية وردة و دحو حسين سنة 2022 بعنوان "**أفعال الكلام في إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي**" التي هدفت إلى البحث عن "أفعال الكلام" في كتاب "إحكام صنعة الكلام" لابن عبد الغفور الكلاعي؛ ذلك من خلال المفهوم والأنواع والوظيفة،وهي في الحقيقة إعادة قراءة لتراثنا النقدي ومقاربته مقاربة تداولية للكشف عن ذلك البعد التداولي في إرساء نظرية نقدية للنثر العربي،انطلاقا من استثمار مفهوم "الفعل الكلامي" في قراءة موروثنا النقدي،وتثمين جهود علمائه. (مزابية

. و دحو .، 2022)

– دراسة معنونة بـ"**الخطاب القرآني ونظرية أفعال الكلام دراسة نقدية في تطبيق المنهج التداولي**" للباحثة جلال سليمة بتاريخ 2022 ، سعت من خلالها الباحثة إلى التحقق من كفاية المنهج التداولي في مقاربة الخطاب القرآني من جهة ومن جهة ثانية النظر في الكيفية التي طبق بها هذا المنهج المستمد من نظرية الأفعال الكلامية ،وذلك من خلال تبيان الكيفية التي استثمرت بها نظرية أفعال الكلام لمقاربة الخطاب القرآني مقاربة تداولية. (جلال ، 2022)

– دراسة يومبعي جميلة و هاجر مدقن سنة 2023 تحت عنوان" **أفعال الكلام غير المباشرة –مقاربة تداولية في سورة الإنسان**" ،حيث قدمت هذه الدراسة مقاربة تداولية لسورة الإنسان ، من خلال تطبيق المنهج التداولي على آيات هذه السورة لسبر أغوارها بطريقة جديدة تختلف عن المنهج التفسيري القرآني ، وتقاربه في نفس الوقت من حيث أخذه بعين الاعتبار كمرجع لقياس صحة ما نتوصل إليه من نتائج تخص أنواع الأفعال الكلامية غير المباشرة في السورة. (يومبعي و هاجر مدقن ، 2023)

– دراسة معزوز عبد المجيد سنة 2023 بعنوان "**أفعال الكلام في الأمثال الشعبية الجزائرية مقاربة تداولية**"قدم فيها مقاربة تحليليّة لعيّنة من الأمثال الشعبيّة وفق نظرية الأفعال الكلاميّة عند جون أوستين. (معزوز،2023)

هذه الدراسات السابقة الذكر تقاطعت مع دراستنا في الهدف العام ألاوهو مقاربة الخطاب تداوليا وفق نظرية أفعال الكلام إلا أن مايميز دراسة هذا المقال ، هو محاولة التركيز عى الأفعال الجزئية المكونة للفعل الكلامي الكلي أو العام ومحاولة مقاربة و تتبعها في قصيدة لامية المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة الحمداني والتي لم تحظ بمقاربة تداولية سابقة وفق هذا المنحى.

الفعل الكلامي والخطاب:

التعريف الاجرائي

لقد أجاب أوستين بما يدل على مفهوم الفعل الكلامي دلالة ليست بالجامعة المانعة كما يقول المناطقة، ولكنها تقترب من أن تكون حدًّا لهذا الفعل، وذلك قوله: «إن قولنا شيئا ما يعني أننا قد تصرفنا أو فعلنا شيئا ما». (أوستين، 2008م) ويفهم من قوله "تصرفنا" و "فعلنا" البعد السلوكي والاجتماعي المترتب على الفعل الإنجازي الذي هو المقصود عند الإطلاق.

ويُعرَّفُ الخطاب بأنه «كلُّ تغيير لغوي أيًّا كان حجمه أُنتج في مقام معين قصد القيام بغرض تواصلي معين». (أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، 2013)، ويفهم من هذا التعريف أن المعتبر في الخطاب الوظيفةُ التواصلية، لا البنية اللغوية في حد ذاتها، وإن كانت لا بد منها، لأنها الأساس الذي تنهض عليه جميع الأفعال المنضوية تحتها، وفي مقابل تَوسُّع المتوسعين في الخطاب ربما ضَيَّقَ البعض الآخر فاشترط فيه أن يتجاوز الجملة الواحدة إلى ما فوقها «...فإن هذا المفهوم يصدق عامة على ما يجاوز الجملة الواحدة إلى كل مجموعة من الجمل يتم بها التواصل بين مستعملي اللغة». (أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، 2013)

والحق أن الخطاب في كُلِّيتِه فِعلٌ كُلِّيٌّ شامل –حالَ تعددِ مكوناته– ينهض على الفعل الخطابي الذي هو في حده الأدنى وحدة خطابية دنيا «من المعلوم لدينا الآن أن الوحدة الدنيا للخطاب هي الفعل الخطابي». (أحمد،2005). وتلك الوحدة الدنيا هي "الفعل الكلامي"، وهو «كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ إنجازيّ تأثيريّ». (علوي، 2005)

،فالفعل الكلامي بهذا المعنى هو "الفعل الخطابي" وإن اختلف التعبير،و«الأعمال اللغوية هي "الوحدات الأساسية أو الدنيا للتخاطب اللساني"». (شكري، 2010).

ويتكون هذا "الفعل اللغوي" الذي هو "الفعل الكلامي" من ثلاثة أفعال جزئية:الفعل الفونيطيقي الصوتي،الفعل الكلامي أو التركيبي،الفعل الخطابي أو الدلالي، وهذه الأفعال في مجموعها تعمل متضامنة في كلٍّ متكامل يُدعَى "الفعل اللغوي". (يحياتن، 2008).

ويعدّ هذا الفعل الأساسَ الذي تنهض عليه كلُّ الأفعال ذات الصلة بالخطاب المنظور إليه وفق المنهج التداولي، يقول بعضهم: «يعد سورل إنتاج "جملة لغوية" إنجازا متزامنا لأربعة أفعال لغوية: "الفعل التلفظي"، و"الفعل القضوي"، و"الفعل الإنجازي"، و"الفعل التأثيري"» (أحمد،1986)،والأهم في هذه الأفعال والذي عادة ما تُصرَفُ إليه العناية في الخطاب "الفعل الإنجازي".

ومن تَتَبُّعِنا لاستعمالات "الفعل الإنجازي" ندرك أن الدارسين كثيرا ما يتوسعون فيه، حتى يشمل الفعل الكلامي، وتارة يُضيِّقون فيقصرونه على الإنجاز المقترن بالقصد. وهو الأصحّ، إذا ما وقفنا عند حدود مصطلح "الإنجاز"، وربما وجد هذا التَسَمُّح في الاستعمال مُبرِّرَهُ في كون "الفعل الإنجازي" هو المقصود عند الإطلاق عند التداوليين، لاقترانه بالقصد كما أسلفنا من قبل.

وسنحاول مُقاربةَ كلٍّ من هذه الأفعال في القصيدة استنادا إلى "فعل القول"، ويسميه بعضهم "فعل التلفظ" أو "الفعل التلفظي"، وهو عند البعض الآخر "العمل القولي" أو "العمل في القول". وقد تكون له تسميات أخرى لا يعنينا كثيرا استقصاءُ القول فيها هنا.

ومقاربة "الفعل الكلامي" على النحو الذي ألزمنا به أنفسَنا في إحدى قصائد المتنبي استحضار جملة من الأفعال، والوقوف على كلٍّ منها، على أنه غرض في المقاربة. وكذا الأمر بالنسبة للفعل الكلامي من جهةِ أنه خطاب كليّ شاملٌ ممتدا في اتجاه حده الأدنى إلى أدنى وحدة خطابية قائمة بذاتها فيه. على أن كلية الفعل الخطابي وجزئيته في مثل هذه الحال نسبيتان على ما سنرى لاحقا.

الإجراء التحليلي للفعل الكلامي وما ينطوي عليه من أفعال في القصيدة:

القصيدة المعنية في هذه المقاربة هي لامية أبي الطيب المتنبي التي أنشأها في رثاء والدة سيف الدولة الحمداني، وقد بلغه نبأ وفاتها، وهو يومئذ بحلب سنة 338ه (المتنبي، 1978) ، ومنهجيتنا في هذه المقاربة تقضي بالانطلاق من "فعل القول" أو "فعل الخطاب" لأنه الأساس الذي تنهض عليه جميع الأفعال.

فعل القول (فعل الخطاب) يقول الشاعر:

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعَوالي * وتَقْتُلُنا المَنُونُ بلا قِتالِ**

ونَرْتَبِطُ السّوابقَ مُقْرَباتٍ * وما يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللّيالي** (المتنبي، 1978)

فالبيتان معًا يمثلان "فعل القول" أو "فعل الخطاب" في كليته النّسبية أو المرحلية، فهو كلي بالنظر إلى ما يسفله ويندرج تحته من الأفعال، وهو فعلٌ جزئيٌّ بالنظر إلى الأفعال التي تعلوه، والتي تُكَوِّنُ في جملتها "الفعل الكلي الشامل" الذي هو الخطاب (النص برمته) في حده الأقصى.

والأفعال الجزئية التي نعنيها والمندرجة تحت الفعل الذي نحن بصدده هي: "نعد المشرفية والعوالي" و"تقتلنا المنون بلا

قتال"، و"نرتبط السوابق مقربات"، و"ما ينجين من خبب الليالي".

وكلٌّ منها يمثل "فعل القول" أو "فعل الخطاب" في حده الأدنى، وثمّة أمر لا بُدَّ من توضيحه، وهو أن الأفعال التي أخذنا على أنفسنا الوقوفَ عليها (الفعل القضوي، والفعل الإنجازي، وفعل التأثير بالقول) في هذين البيتين ثم في القصيدة كلّها، هي أوضحُ ما تكون إجرائيًّا في "الأفعال الخطابية التي هي وحدات دنيا" منها في "الأفعال الكلية الشاملة"، ولْنأخذْ على سبيل المثال والإيضاح، الفعل "نعد المشرفية والعوالي" الذي يمثل وحدة خطابية دنيا قائمة بذاتها، وهو فعل تنضوي تحته الأفعال التالية:

أ/ **الفعل القضوي:** «وهو يعادل الفعل الدلالي الذي كان جزءا من "فعل القول" في تصور أوستين إلا أنه عند سورل يشكل فعلا مستقلا عنه(....)ويتكون من "فعل الإحالة"، و"فعل الحمل أو الإسناد"». (علوي، 2005)

أ-1 "**فعل الإحالة**": والإحالة «فعل تداولي يربط بين أربعة عناصر: الخطاب وما يحيل عليه حضورا أو ذكرا والمتخاطبين والمخزون الذهني الذي يعتقد المتكلم توافره لدى المخاطب إبان التخاطب». (الحسين، 2014م)،والإحالة بمعناها الخاص تعني "العبارة" التي تحيل على الذات المشاركة في "الواقعة" التي يدل عليها المحمول ويتسع مفهوم الإحالة فيشمل، فضلا عن إحالة الاسم، إحالة المصدر وإحالة الجملة. (أحمد،2013)، وليس بالضرورة أن تُحيل "العبارة" على ذاتٍ تُوجَد في عالم الواقع، بل قد تحيل على مُتَخَيَّل، كما هي الحال في "الغول" و"العنقاء" عند العرب.

والإحالة إنما تتحقق في "الفعل الخطابي" بتناغم عناصر الخطاب التي أورد بعضُ الدارسين بعضَها تحت ما أسماه بـ"شروط تحقق الفعل الإحالي"، وهذه العناصر، وإن شئت، فقل الشروط، هي:

– **المتكلم:** وهو، هنا، أبو الطيب المتنبي. والمؤشر هو السياق الخارجي. ذلك أننا ذكرنا أن هذه القصيدة قالها المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة كما جاء في الديوان.

– **المخاطَب:** بشيء من التروي ندرك أنّ هناك مخاطَبَين الأظهرُ منهما والأولى بالعناية سيفُ الدولة الحمداني، ولنا عليه مؤشران:

الأول خارجي: وهو السياق الحاضن للقصيدة، فقد أسلفنا أن القصيدة قيلت في رثاء والدة سيف الدولة، وهو أولى بالعناية والتعزية، ومن ثم بأن يوجه إليه الخطاب في هذا المقام.

وأما **المؤشر الثاني:** فمن داخل النص المستهدَف. نعني بذلك توجيه الخطاب إلى سيف الدولة في غيرما موضع من النص، من ذلك:

أَسيفَ الدّولةِ استنجدْ بصبرٍ * وكيف بمثْلِ صبرِكَ للجبالِ**

فأنتَ تُعلِّمُ النّاسَ التَّعَزِّي* وخَوْضَ الموتِ في الحربِ السِّجالِ**

وحالاتُ الزَّمانِ عليكَ شَتَّى * وحالُكَ واحدٌ في كُلِّ حالِ** (المتنبي، 1978)

فهو يخاطبه حاثا إياه على الصبر "**أسيف الدولة استنجد بصبر**"، وهو يعلم أن الحدث جللٌ تنوء بحمله الجبال. وإذا كان الأمر كذلك فكيف بالإنسان؟! "**وكيف بمثل صبرك للجبال**"؟! ،ولم يتوانَ الشاعر في إغراءِ مخاطَبِهِ بالصّبر والثبات، فقد عهده شجاعا في الحرب مقبلا غير مدبر، موطِّنا نفسه على احتمال أهوالها وتبعاتها.

وأما المخاطب الآخر: فهو وارد لا محالة، قصد إليه المتنبي أم لم يقصد، ودليلنا في ذلك أننا نرى أنفسنا في هذا المقام معنيين بقول المتنبي لأكثر من سبب. ويُعزّز في نفوسنا الحاجةَ إلى الخطاب أنَّ ما يَعرِضُ له المتنبي في نصه هذا لا يخلو

من البعد الإنساني، الذي بمقتضاه يمكن للقارئ كائنا من كان أن يجد بُغيَتَه في هذا الخطاب، ومن ذا الذي يَدْفَعُ كون الحياة بطبيعتها مُكْلِفَة، كما أقرّ بذلك المتنبي نفسه في مواضع كثيرة من شعره، حتى صنع لنفسه من نوائب الأيّام وتقلباتها فلسَفَةً هي قوام شعره.

وللعبارة في الخطاب معنيان، والذي يعنينا هنا العبارة التي تعني الإحالة على "الذات" التي هي مدلول "الحدّ" في النحو الوظيفي. حيث جاء في تعريف "الحدّ" بأنه «كل عبارة يمكن استعمالها للإحالة على ذات أو ذوات في عالم ما» (أحمد،2013)، والعبارة بهذا المعنى تَصدُقُ في "فعل القول" أو "فعل الخطاب": "**تعد المشرفية والعوالي**" المعتمد للتمثيل والإيضاح –على ضمير الفاعل "نحن" المستتر في الفعل "تُعدّ"، وعلى المفعول "المشرفية"، وعلى المعطوف "العوالي"، على اعتبار أن هذه ذوات مُشاركة في الواقعة التي دَلَّ عليها المحمول "تُعِدُّ". فالمتنبي يحيل بهذه الـ"حدود" على الذوات المشاركة في إنجاز فعل الإعداد، وهي إحالة لا بد منها لصلة المتكلم بالمخاطب التي يقوم عليها فعل الخطاب.

يفهم من هذا أن "العبارة" جملة مفيدة يحسن السكوت عليها على حد تعبير النُّحَّاة العرب، ولكنها محكومة بالسياق. وهو ما يعني أن العبارة بهذا المعنى "فعل خطابي" بالمعنى الذي عُرِّفَ به الفعل الخطابي «يعد فعلا خطابيا كل ملفوظ/مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات». (أحمد، 2014م)

والقصد هو الذي يجعل من "فعل القول أو الخطاب" وحدة تواصلية تستحق أن توصف بأنها كلام «والتواصل الذي نعنيه، هنا، هو التواصل القصدي، أو بعبارة أدق التواصل التقاصدي، أي الذي يتحقق فيه القصد من الجهتين: جهة المتكلم، وجهة المخاطب، فعاقد الكلام لا يسمى متكلما إلا إذا كان قاصدا التوجه بكلامه إلى مخاطب، ومتلقي الكلام لا يسمى مخاطبا إلا إذا كان قاصدا التوجه بسمعه إلى المتكلم»، (علوي، 2005) ،ومؤشر القصد حصول غرض المتكلم في الخطاب لدى المخاطب على النحو الذي أراده وقصد إليه؛وعلى هذا يكون القصد كامنا في "فعل القول أو الخطاب" المحكوم بالسياق المستند إلى الملفوظ، ولولا الضوابط والقرائن لما اهتدى المخاطَبون إلى مقاصد المتكلمين. وعليه يكون المتنبي قد قصد في قوله: "**نُعِدُّ المشرفية والعوالي**" إلى مخاطب بعينه، وذلك المخاطب هو سيف الدولة الحمداني، لإبلاغه أن الأسباب التي نحن مطالبون بالأخذ بها إنما هي إلى مدًى لا تتجاوزه، وعلى أن تكون في الوُسْع. وفي إدراك المخاطب لهذه الحقيقة من العزاء ما ليس بِخَافٍ.

والسياق هو الكفيل بتحديد القصد وكما هو معلوم فالسياق سياقان: لغوي، وغير لغوي، أما **السياق اللغوي** فيتمثل«في العلاقات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية،وهو النظم في علم العربية». (علوي، 2005)،و**السياق غير اللغوي**ارتبك الدارسون في تحديد مقوماته، وليس أدل على هذا الارتباك من مثل قول بعضهم «لا يوجد إجماع حول طبيعة مقومات السياق» (يحياتن، 2008)، فعدم وضوح الرؤية سمح لبعضهم أن يتوسَّعَ في السياق حتى شمل عنده كل ما له صلة بالخطاب وتأويله، فأورد أن السياق «هو المناخ أو الجو العام الذي يتم فيه الحدث الكلامي، فهو يشمل الزمان والمكان، والمتكلم والسامع، والأفعال التي يقومون بها، ومختلف الأشياء والحوادث التي لها صلة بالحدث الكلامي» (علوي، 2005)، وأضاف «يتسع السياق ليشمل المعرفة المشتركة بين المتكلم والسامع لكل ما له علاقة بفهم المنطوق، كما يتسع ليشمل القَبُول الضمني من قبل المتكلم والسامع لكل الأعراف التي لها علاقة بالموضوع والاعتقادات، والمُسَلَّمات السابقة المعتد بها من قبل الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها المتكلم والسامع» (علوي، 2005)، وبذلك يصير السياق هو كل شيء عدا البناء اللغوي والسياق الداخلي الذي يحكمه كما أسلفنا.

ولنعد إلى "فعل القول أو الخطاب" في حده الأدنى، الذي هو موضوع الحديث هاهنا، لنتساءل عن السياق الذي يحكم هذا الفعل "نعد المشرفية والعوالي"، ثم ما يعلوه من أفعال في اتجاه الفعل الكلي الشامل إلى الخطاب في كليته وشموليته؟؛واستنادا إلى ما سبق من الحديث عن السياق ومكوّناته يمكن الوقوف على سياق هذا الفعل "نعد المشرفية والعوالي"، ومن ثم بقية الأفعال، فيما يلي:

– **المتكلم:** وهو أبو الطيب المتنبي، ويحيل عليه السياق الخارجي.

– **المخاطب:** وهو سيف الدولة الحمداني أمير حلب، ويحيل عليه السياقان الخارجي والداخلي على ما ذكرنا آنفا في الإحالة، ثم هذه الحميمية بين أبي الطيب وسيف الدولة، والتي كانت عاملا من عوامل قلق المتنبي واضطراب حياته، بفعل تَعَقُّبِ الحُسَّاد أَثَرَهُ حيثما كان، وقد صرّح بذلك في غيرما موضع من الديوان، من ذلك قوله يخاطب سيف الدولة:

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ * فأنت الذي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّدَا** (المتنبي، 1978)

يعني بما أغدقت علي من النِّعم صاروا يحسدونني.

ويكفي أن ننخرط في الخطاب، وأن نتمثل حال الشاعر في بلاط سيف الدولة، لِنُحِسَّ أنَّ لهذه الحَمِيمِيَّة صَدًى طالما تردد في كل فعل من أفعال القصيدة، حميمية من شأنها أن تقودنا إلى مقاصد الشاعر في أفعاله الخطابية،وأما المقام بمعناه الخاص فهو مقام تعزية. لذا كان فعل التعزية حاضرا في كل فعل من أفعال القصيدة التي سنأتي على ذكرها لاحقا، وإن اختلف هذا الحضور من فعل إلى آخر.

أ–2 "فعل الحمل" أو الإسناد: ويقوم هذا الفعل على الإسناد الذي «هو ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفيّ عنه» (عرفة، 2013) فالإسناد هو النسبة الحاصلة جرّاء إسناد المسند إلى المسند إليه ، أما المسند، وهو المحمول: ومقولاته المعجمية الكبرى هي: (الفعل، والصفة، والاسم، والظرف) (أحمد، 2013) ، و المسند إليه: وهو "الحد"، ويعرف بأنه « كل عبارة يمكن استعمالها للإحالة على ذات أو ذوات في عالم ما»˙(أحمد، 2013) فالحدود تدل على الذّوات المشاركة في "الواقعة" التي يدل عليها المحمول،والحدود قسمان: حدود موضوعات يقتضيها المحمول ضرورة، وهي (المنفذ، والمتقبل، والمستقبل). وحدود لواحق لا يقتضيها المحمول ضرورة، مثل (المكان، والزمان، والأداة، والحال). (الحسين، 2014م).

ومن تمام الفائدة أن نشير إلى أن "المبتدأ" الذي هو "المسند إليه" في النحو والبلاغة العربيين، لا يُعَدُّ من "الحمل" (المحمول + الحدود). يقول المتوكل: «هناك شبه إجماع في الدراسات اللغوية (سواء منها الدراسات ذات الاتجاه التركيبي أو الدراسات التداولية) على أن ما نسميه بالمبتدأ وظيفة خارجية» (أحمد، 1985)، أي خارج الإطار الحملي. بناء على ما تقدم فإن المسند في "فعل القول أو الخطاب": "**نعد المشرفية والعوالي**" هو الفعل (نعد) وهو المحمول. والمسند إليه هو الفاعل (نحن) المستتر وجوبا في الفعل (نعد)، والذي يعود على المتنبي والمجموعِ (نحن) الذي يتكلم بلسانه. والمفعول (المشرفية) حدٌّ أدّى وظيفة الإحالة على ذاتمشاركة في "الواقعة" التي دل عليها المحمول "نعد".

وأمّا "العوالي" فحدٌّ عُطِفَ على الحد "المشرفية" الذي قبله. وسوّغ عطفَ هذين الحدين اشتراكُهما في الوظيفة الدَّلالية، التي هي وظيفة "المتقبل"، والوظيفةِ التركيبية "المفعولية"، والوظيفةِ التداولية التي هي "البؤرة"، وهي هنا "بؤرة جديد". وتعرف «بأنها البؤرة المسندة إلى المكون الحامل للمعلومة التي يجهلها المخاطب (المعلومة التي لا تدخل في القسم الإخباري المشترك بين

المتكلم والمخاطب)» (أحمد، 1985)، والقاعدة المشتركة التي تحكم عطف الحدود هي قاعدة "قيود التناظر" الدلالية، والتركيبية، والتداولية، مع استثناءات تقدر بقدرها، لا يتسع المقام لذكرها في هذا الموضع،وبطرفي الإسناد: الفعل (نعد)، وفاعله (نحن) المستتر فيه وجوبا، مضافا إليهما "الحدان": المعطوف (العوالي) والمعطوف عليه (المشرفية) –يَكمُل الفعلُ الخطابي "نعد المشرفية والعوالي" وحدةً قائمة بذاتها.

الفعل الإنجازي:

وهو الفعل المستهدف في الخطاب ابتداءً، ويُعرّف بأنه «حدث مقصود من قبل المتكلم ابتداء، ينطوي عليه فعلُ القول، فيما يكون قد ترجّح لدى المخاطب أو المؤول»(أحمد، 1985)، واللافت في هذا التعريف أنه تضمن عناصر لا بد منها في مفهوم "الفعل الإنجازي" وهي: المتكلم، والمخاطب، والقصد، والملفوظ (فعل القول)، وهي عناصر لم يتضمنها مجتمعةً أيٌّ من التعريفات التي وقفنا عليها،وقد تعددت مستويات "الفعل الإنجازي" بهذا المعنى في قول المتنبي "نعد المشرفية والعوالي" بتعدد المقاصد المحتملة،"فالفعل الإنجازي" فعل إخباري تقريري ثم هو طلبي باعتبار أن الشاعر يدعو المخاطبة بطريقة غير مباشرة للأخذ بأسباب القوة.وإن شئنا الذهاب أبعد من هذا في سلسلة الأفعال المتناسلة بعضها من بعض لأمكننا ذلك ولو بشيء من الإكراه والتعسف. بيد أن حظ هذه الأفعال المتناسلة من قصد المتكلم ليس واحدا، فهو يزيد فيها وينقص ويقوى ويضعف.ثم إن بعض هذه الأفعال مرحلي وبعضها نهائي. ولا بد من نهاية لهذا التناسل إذ لا يمكن تحميل الملفوظ أكثر مما يحتمل.

فالشاعر في قوله: "**نعد المشرفية والعوالي**" يخبر بما دأب عليه الإنسان المعبر عنه بالضمير (نحن) في حياته من إعداد ما تدعو الحاجة إلى مواجهته من العوادي وعوامل الإذلال والابتزاز والاستعباد والفناء، وما إلى ذلك مما يتوجب على الإنسان أن يُعِدَّ العدَّة لمواجهته. ولم يفت المتنبي أن يذكر بهذه الحقيقة:

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة * فلا تَسْتَعِدَّنَّ الحُسامَ اليَمَانِيا**

ولا تَسْتَطيلَنَّ الرِّماحَ لِغارةٍ * ولا تَستَجيدَنَّ العِتَاقَ المَذاكِيا**

فَمَا يَنْفَعُ الأُسْدَ الحَيَاءُ منَ الطَّوَى * ولا تُتَّقَى حتَّى تكونَ ضَواريا** (المتنبي، 1978)

وليس بسائغ القولُ بتوقف قصد الشاعر عند الإخبار فحسبُ، لكون المُخبَرِ به، وهو دأبُ الإنسان على الإعداد للطوارئِ، أمرٌ معروفٌ منه لصلته بالواقع المعيش، واقع اقتضته ضرورات الحياة وتعدد حاجات الإنسان فيها، حاجات ما فتئت تحول دونها حوائل. وإذن فلا مناص من الإعداد لها. لذلك توجب حمل الإخبار على التقرير، والتقرير منبئٌ بأهمية المقرَّر. وكأني بالشاعر هاهنا يُعزّي المخاطب من جهة عدم تقصيره في الإعداد ، وهو أمر يدل عليه واقع حال سيف الدولة، وما عُرف به من حزم وعزم وفطنة ودهاء. وما إلى ذلك من الخصال والمزايا التي عُرف بها حتى قال فيه المتنبي:

فذا اليوم في الأيام مثلك في الورى * كما كنت فيهم أوحدا كان أوحدا** (المتنبي، 1978)

فعل التأثير بالقول:

وهو ناتج القول وآثاره المترتبة عليه، وليس هذا ببعيد مما ذهب إليه بعضهم من أن "فعل التأثير بالقول" إنما هو "عمل نتسبّب فيه أو نحقّقه بواسطة قول شيء ما" ،ومن سماته أنه لا يقوم على مواضعة وأن القصد ليس شرطا فيه، فقد يكون مقصودا وقد لا يكون (شكري، 2010)، بخلاف الفعل الإنجازي فإنه لا بد فيه من القصد على ما تم تقريره في موضعه، وفي حال اقتران "فعل التأثير بالقول" بالقصد يصير فعلا إنجازيا إلى جانب أنه تأثيري في مستوى من مستويات الفعل

الإنجازي.

وبجامع القصد في مثل هذه الحال، وأنهما معا ناتجان عن فعل القول، التبس أحدهما بالآخر «ومما يشجع على مراجعة عمل التأثير بالقول أننا نجد في أبواب الإنشاء من كتب البلاغيين خلطا كبيرا بين ما يدل على الأعمال في القول وما يدل على أعمال التأثير بالقول... وهذا الخلط في تقديرنا، قائم حتى في كتابات المحدثين من أصحاب نظرية الأعمال اللغوية بل في نص أوستين نفسه». (شكري، 2010)

ويتجلّى عمل التأثير بالقول فيما يتخذه المخاطب من المواقف ويتحلّى به من السلوكات، ويتبنّاه من الآراء، ويؤمن به من الأفكار والمعتقدات، تأثرا بما تلقاه أو بوحي منه. وتلك الآثار قد تنسجم مع مقصد المتكلم، وإن لم تكن مقصودة في ذاتها ابتداء، وقد لا تنسجم، ومع أن "فعل التأثير بالقول" المترتّب على هذه الأفعال باعتبارها وحدات دنيا، يبقى محدود التأثير تَبَعًا لمحدودية فعل القول ذاته، فإننا –ووفاء للمنهجية التي اعتمدناها في مقاربة هذه الأفعال في الخطاب –نحاول تَلَمُّس ما نتوقعه من تأثير لفعل القول "**نعد المشرفية والعوالي**" على ما هو عليه في جزئيته، في انتظار ما سنورده حين الحديث عن الفعل في كليته المرحلية، ثم في كليته النهائية.

ولعل أول ما يتبادر إلى أذهاننا من ذلك شَدُّ الخطابِ انتباهَ المخاطَبِ إلى مسألة الإعداد، مجرَّدِ الإعداد فحسب، ولا شك لدينا في أن مُجرّد ذكر الإعداد، هو وحده، كفيلٌ بأن يثير لدى المخاطَب أسئلة كثيرة من قبيل: ما الإعداد الذي يعنيه المتنبي هنا؟ وهل هو القوة المادية وحدها كما تتجلّى في قوة السلاح وما يتصل به مما تدعو إليه ضرورة الدفاع عن النفس، أم أنَّ الإعداد أنواع؟ وما عساها أن تكون هذه الأنواع؟ وما الحاجة إلى كل منها؟ وتحت أي ظرف من الظروف؟ فإثارَةُ مثل هذه الأسئلة لدى المخاطَب مِنَ التَّأثيرِ بالقول، ورُبَّما حَمَلَ المُخَاطَبُ هذه التساؤلات على محمل الجدّ، فراح ينظر في حاله وحاجته إلى الإعداد، فأخذ على نفسه أن يسعى للأخذ بأسباب القوة في حياته تأثرا بما سمع ووعى، وهو إذا ما التفت إلى الواقع المعيش من حوله وجد لا محالة ما يعزّز في نفسه هذا المسعى، واقع اتسعت فيه طرقُ المظالم ولم يعد الحِلْمُ مجديا في شيء .

الفعل الكلّي

بعدما فرغنا مما أمكن قوله في "فعل القول" "**نعد المشرفية والعوالي**" الجزئي وما انطوى عليه من أفعال، ولنا الآن أن نعود لنصب اهتمامنا على الفعل الذي يعلو هذا الفعل الجزئي مباشرة، نعني بذلك هذا الفعل الذي يسمِّي بعضهم ما كان بمنزلته بـ"الفعل الأكبر مرحليا" (قنيني، 2000م)، فهو مرحلي ما دام هناك فعلٌ أكبر منه يعلُوه وينتهي إليه، بحكم أن الأفعال يعلو بعضها بعضا، ابتداءً بأصغرها الذي يمثل "الوحدة الخطابية الدنيا"، وانتهاء بـ"الفعل الكلي الشامل" الذي هو الخطاب في كليته وشموليته (قنيني، 2000م). وعليه فالقصيدة كلها تمثل فعلا خطابيا كليا شاملا.

وحسبنا من هذا "الفعل الأكبر مرحليا" كما هو في البيتين الآنف ذِكرُهُما، واللذين صدَّرنا بهما هذه المقاربة في قسمها الإجرائي –أن نجتزئ في هذا المقام بالإشارة إلى أن الفعل المنجز في هذين البيتين هو "فعل الإخبار التقريري" على ما هو باد لنا من منطوق اللفظ، أي تقرير ما مؤداه أن الأخذ بأسباب القوة ضرورة من ضرورات الحياة، لِما بين الأجناس فيما بينها، بل وبين أفراد الجنس الواحد من الصراع الذي تُمليه غريزة تنازع البقاء وحفظ النوع، وهو ما عناه المتنبي بقوله "والظلم من شيم النفوس". وتلك حقيقة انتهى إليها بعد تجربة مريرة في الحياة ومعرفةٍ بأحوال الناس ودخائل النفوس:

ومن عرف الأيام معرفتي بها * وبالناس رَوَّى رُمحَه غيرَ راحم**

فليس بمرحوم إذا ظفِروا به * ولا هو في الجاري عليهم بآثم** (المتنبي، 1978)

بيد أن لهذه القوة المعتدَّ بها مدًى لا تتجاوزه، ومن ثم فلا مؤاخذة على المرء فيما لا حيلة له فيه. وفي هذا من التعزية ما ليس بخاف. وكأني بالمتنبي يشير من طرف خفيٍّ إلى أن مخاطبه لم يؤتَ في مصيبته هذه من غفلةٍ أو تقصيرٍ في الأخذ بأسباب القوة التي تَحُولُ دون أن ينال المخاطَبَ ومن إليه مكروهٌ في وسعه دفعه، كما نطق بذلك شعره. وفي تقرير هذه الحقيقة عزاء للمخاطب فيما هو فيه.

وبناء على هذا الذي تقدم ندرك أن في هذا الخطاب الكلي المرحلي ثلاثة أفعال على الأقل متواشجة، وإن شئنا، وبشيء من التجوز في التعبير، قلنا متناسلة يلد السابقُ اللاحقَ منها (الإخبار، التقرير، التعزية). وسنرجئ الاستقصاءَ فيما بَقِيَ من الأفعال التي يمكن أن يحتملها هذا الفعل، على ما بينها من التفاوت في أهميتها –إلى حيث نتناول الحديث عن "الفعل الكلي الشامل" الذي هو الخطاب في كليته وشموليته ممثلا في القصيدة برمتها.

ولئن كان فعل التعزية هو الأظهر والأطغى، والأولى بقصد الشاعر في نهاية المطاف، بحكم المقام في الأفعال المكونة لفعل الخطاب كلها، فإن هذا الفعل هو أوضح وأجلى في فعل الخطاب الأكبر، وغيره من الأفعال إنما هو خدم له. ولإيضاح ما يتعلق بهذا الفعل لا بد من الإشارة إلى أن من يتأمل الخطاب في كليته يدرك أن "فعل التعزية" أولى من غيره بقصد الشاعر. وهو تارة يطفو على السطح بدلالة منطوق اللفظ عليه كما في قوله:

أسيفَ الدولةِ استنجدْ بصبرٍ * وكيف بِصَبْرِ مِثْلِكَ للجِبَالِ؟**

فأنت تعلم الناس التَّعَزِّي * وخوضَ الموتِ في الحرب السِّجالِ** (المتنبي، 1978)

ففي هذين البيتين دعوةٌ صريحة للصبر "**استنجدْ بِصَبرٍ**" والإغراءِ به "**فأنت تعلم الناس التعزي**"، وليس في إمكان المؤوّل حمل اللفظ على غير (فعل التعزية) في هذا المقام،وتارة يُستخلَص "فعل التعزية" من أفعال أُخَرَ ليست مقصودةً لذاتها من قِبَل المتكلم، والمتكلم هنا هو الشاعر. وإنما هي مقصودة لغيرها. وذلك الغير هو "فعل التعزية".

وتلك الأفعال بعضها أكثر هيمنة،وها نحن آتون على ذكر المُحتَمَلِ منها بالقصد أو بالتَّتَبّعِ فيما يلي:

أ– **الفعل التعبيري:** وهو أكثر الأفعال هيمنة في القصيدة بعد فعل التعزية، ومن يتأمل القصيدة في كليتها يدرك أن الفعل التعبيري أيا ما كان حضوره وأهميته وهيمنته فهو في خدمة فعل التعزية، ولنا أن نقول في الفعل التعبيري ما قيل في فعل التعزية من قبل، من حيث طُفُوُّه على سطح اللفظ تارة، واستخلاصه استخلاصا تارة أخرى. فهو حاضر في "فعل الدعاء":

صلاةُ اللهِ خالقِنا حَنُوطٌ * على الوجهِ المُكَفَّنِ بالجَمال**

سقى مثواك غاد في الغوادي * نظير نوال كفك في النوال** (المتنبي، 1978)

وفعل الترحم فعل تعبيري في المقام الأول، لارتباطه بالوجدان ودخائل النفس. وإلى جانب ظهور فعل التعزية في الدعاء، فهو حاضر في غير الدعاء كذلك:

أُسائِلُ عنكِ بعدكِ كُلَّ غادٍ * وما عهدي بمجدٍ عنكِ خالي**

يمرُّ بقبرِكِ العافي فيَبْكي * ويَشْغَلُه البكاءُ عن السّؤال**

بِعيشِكِ هل سَلَوْتِ فإنَّ قلبي * وإن جانَبْتُ أرضَكِ غيرُ سالي**

نَزَلْتِ على الكراهة في مكان * بَعُدتِ عن النُّعامى والشّمال**

وأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنا * قُبَيْلَ الفقدِ مَفقودَ المِثالِ** (المتنبي، 1978)

وقد تتسع دائرة "التعبيرية"، فيتجاوز الشاعرُ التعبيرَ عن هذه المصيبة الخاصة إلى ما أَلَمَّ به في حياته كلها، وذلك قوله:

رماني الدّهرُ بالأرزاء حتى * فُؤادي في غِشاءٍ من نِبال**

فَصِرتُ إذا أصابتني سِهامٌ * تَكَسَّرَتِ النِّصالُ على النِّصالِ**

وهانَ فما أُبالي بالرَّزايا * لِأَنِّي ما انتفعتُ بأَنْ أُبالي** (المتنبي، 1978)

والمجاوزة هنا ليست سائغة فحسب، ولكنها دليل على شاعرية المتنبي، لأن المصائب واحدة وإن تعددت وتنوعت أسبابها، وأن بعضها، لا محالة، يستدعي البعض في المقامات الجامعة.

وتارة يستخلص "الفعل التعبيري" من أفعال أخرى على ما سنرى لاحقا. ولهذا الفعل مُؤَشِّرُهُ على ما أوردناه. ولعل من أهم مؤشراته الإغراق في الذاتية، والتعويل على الوجدان ودخائل النفس. ويُعَدُّ الضمير (أنا) مؤشرا على الذات المنسوب إليها "الفعلُ التعبيري". نجد هذا الضمير في قوله: **(رماني الدهر، فؤادي في غشاء، فصرت، أصابتني سهام، فما أبالي، لأني ما انتفعت بأن أبالي)**، والذاتية إنما تقاس بمدى تأثير المتكلم في المخاطَب أو المؤوِّل، ولن يبلغ المتكلم من ذلك شيئا حتى يصدرفي تعبيره عن باعث صحيح يَمْتَحُ من تجربة حقيقية حيّة، يكون قد عاناها في حياته. وللمتنبي في هذا الحظُّ الأوفَرُ الذي يشهد له به كلُّ مَنْ نظر في شعره، وتَمَثَّلَ حالَهُ فيه.

أ-1 فعل الرثاء: والرثاء في الشعر البكاء على الفقيد وإبداء الحزن عليه، وتعداد مناقبه وخصاله التي كانت له في حياته.

فأما ما يتعلق بالحزن على الفقيدة فقد أمضينا القول فيه حين عرضنا للفعل التعبيري، وأما ما يتعلق بمناقبها وخصالها فمن غير المُسْتَبْعَدِ أن يكون المتنبي قد انتقى من تلك المناقب والخصال ما ترجّح لديه استحسانُه، بالنظر إلى المقام الذي هو مقام تعبير ورثاء وتعزية. إذ ما من خصلة من الخصال المنتقاة إلا وهي على صلة وثيقة بهذه الأفعال (الفعل التعبيري، وفعل الرثاء، وفعل المدح، وفعل التعزية).

وتلك المناقب والخصال التي أتى المتنبي على ذكرها في القصيدة تتمثل في كون الفقيدة أول امرأة في منزلتها ينعاها الناعي:

وهذا أَوَّلُ النّاعينَ طُرًّا * لأَوَّلِ مِيتَةٍ في ذا الجَلالِ** (المتنبي، 1978)

وشَفَّعَ ذلك لاحقا بقوله:

ولو كان النّساءُ كمَنْ فَقَدْنا * لَفُضِّلَتِ النّساءُ على الرِّجال**

وما التّأْنيثُ لاسمِ الشّمسِ عَيْبٌ * ولا التّذكيرُ فخرٌ لِلْهِلال**

وأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنا مَنْ وَجَدْنا * قُبَيْلَ الفَقْدِ مَفْقُودَ المثال** (المتنبي، 1978)

فهي مُفضّلة على الرجال، وكونها أنثى ليس بقادح في فضلها وعُلُوِّ منزلتها، وإن الفاجعة فيها عَظُمَتْ بعظمة تلك المنزلة، وحَسْبُها أنها لا نظير لها فيما وُصِفَتْ به من محمود الخصال، فهي موصوفة بالعفة والطهارة والنقاء، وهي كتوم للسر، صادقة في المقال:

حَصانٌ مِثْلُ ماءِ المُزْنِ فيهِ * كَتُومُ السّرِ صادِقَةُ المَقال**

ولَيْست كالإناث ولا اللّواتي * تُعَدُّ لها القبورُ من الحِجال** (المتنبي، 1978)

وإنها لشرفها ومنزلتها التي كانت لها في حياتها تُقَبِّلُ عينها "**وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبِّلَةِ النّواحي**"، وإنها نشأت نشأة يَحُفُّها فيها المَجْدُ من كل جانب "**وما عَهْدي بمجدٍ عنكِ خالي**" وإنها كريمة آخذة بأيدي المحتاجين "**يمرّ بقبرِكِ العافي فيبكي**" حتى ليشغله "**البكاء عن السؤال**"،ولسائل أن يسأل عن الحد الفاصل بين "الفعل التعبيري" و"فعل الرثاء" ما دام الرثاء في حد ذاته تعبيرا؟ولنا أن نجيب بأن "الفعل التعبيري" يَتَّسع لما لا يَتَّسع له "فعلُ الرثاء". لذلك مَيَّزنا بين الفعلين بأن تناولنا كلا منهما على حدة.

أ-**2: فعل المدح:** والمدح هو الثناء على الممدوح بمناقبه ومحمود خصاله. وله بواعث متعددة. فقد يمدح الشاعر ممدوحه لمصادفة هوى في نفسه كما قال المتنبي:

إنّما تَنْجَحُ المَقالَةُ في المر * ءِ إذا صادَفَتْ هَوًى في الفُؤادِ** (المتنبي، 1978)

أو لِمَأرَبٍ يطويه المادِحُ في نفسه، فهو يُلمّح تارة. وقد ينفد صبره فيُصَرِّحُ بالمَطْوِيِّ في النفس.

والمتنبي يمدح سيف الدولة في القصيدة التي بين أيدينا في مقاربتنا هذه، إنما يفعل ذلك رعايةً للصّلة بينه وبين ممدوحه، فهو يمدحه بالمُلك الذي حازَهُ لنفسه بالحزم والعزم والرّأي السّديد وبعد الهمة. وتلك صفات ما فَتِئَ المتنبي يصف بها ممدوحَهُ في شعره، من ذلك ما أورده في قصيدته هذه. فالناظر في القصيدة يلاحظ أن المتنبي أثنى فيها على سيف الدولة بالرفعة والملك وعزّ السلطان:

رِواقُ العِزِّ حوْلَكِ مُسبَطِرٌّ * وَمُلْكُ عليّ ابنِكِ في كَمالِ** (المتنبي، 1978)

وبالتّسامي إلى المَعالي:

يُعَلِّلُها نِطاسِيُّ الشّكايا * وَواحِدُها نِطاسِيُّ المَعالي** (المتنبي، 1978)

وبالتيقّظ والحزم والعزم والجاهزيّة والشّجاعة والإقدام وحماية الحِمَى:

إذا وَصَفُوا لَهُ داءً بِثَغْرٍ * سَقاهُ أَسِنَّةَ الأَسَلِ الطِّوالِ:**

فَأَنْتَ تُعَلِّمُ النّاسَ التَعَزّي * وخَوْضَ المَوْتِ في الحَرْبِ السِّجال** (المتنبي، 1978)

وبالصّبر والثبات:

أَسَيْفَ الدّولةِ اسْتَنْجِدْ بِصَبْرٍ * وَكَيْفَ بِمِثْلِ صَبْرِكَ لِلْجِبالِ**

فأَنْتَ تُعَلِّمُ النَّاسَ التَّعَزّي * وَخَوضَ الموتِ في الحربِ السِّجالِ** (المتنبي، 1978)

وليس من المدح في شيء أن يُجرِّدَ المتنبي ممدوحه، وهو من هو، من صفة الصبر قبل وأثناء الخطاب.

وأثنى عليه بالثبات:

وحالاتُ الزّمانِ عليكَ شَتَّى * وحالُكَ واحدٌ في كُلِّ حالِ** (المتنبي، 1978)

والصّبرُ والثّباتُ مِن تَبِعاتِ المُلْك واستحقاقاتِه.

كما أثنى عليه بالفضل والتميز عمّن عداه من الملوك ؛بل هو أفضل الأنام قاطبة:

رَأَيْتُكَ في الذين أَرَى مُلُوكا * كَأَنَّكَ مستقيمٌ في مُحالِ**

فإن تَفُقِ الأَنَامَ وأَنْتَ مِنْهُمْ * فإنَّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغَزالِ** (المتنبي، 1978)

ب- **فعل الإخبار:** والإخبار هو وصف المُخبَر به على ما هو عليه في عالم الإمكان حقيقة أو حُكْمًا، ومُؤشّر الإخبار قابليّةُ الحكم على الخبر بالصدق أو الكذب، وقد لا يكون الإخبار فعلا مقصودا لذاته، وإنما يكون مقصودا لغيره، فالمتنبي لم يُخبِر

لمجرّد الإخبار، ولكنه أخبر لتقرير ما أخبر به، وكذا الأمر بالنسبة لـ"الفعل التقريري" فإنه لم يكن مقصودا لذات التقرير، وإنما هو مقصود باعتبار ما يُسْلِمُ إليه من الأفعال (الفعل التعبيري، وفعل الرثاء، فعل المدح، فعل التعزية)، **وإن كان المقصود من هذه الأفعال جميعها في النهاية "فعل التعزية"**.

ومن الإخبار التقريري في القصيدة قوله:

ومَا أَحَدٌ يُخَلَّدُ فِي البَرَايا * بَلِ الدُّنيا تَؤُولُ إِلَى زَوالِ** (المتنبي، 1978)

فهو هنا فعل إخباري تقريري، لأن المخاطب لا يجهل أن الموت غايةٌ ينتهي إليها الجميع ، وأن الدنيا بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، مُنتهية إلى زوال لا محالة، والمتنبي إنما يخبر بهذه الحقيقة مؤانسةً للمخاطب، وتعزيةً له فيما أصابه، وما قيل في هذا البيت يقال في بقية الأبيات الإخبارية التي لم يتسع المقام لإيرادها جميعها.

الخاتمة

في هذا المقال، تم استعراض وتحليل الفعل الكلامي وما ينطوي عليه من أفعال في لامية المتنبي في رثاء أم سيف الدولة بهدف الكشف عن الأبعاد التداولية التي استخدمها الشاعر للتعبير عن مشاعره في هذا الموقف الحزين. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، أبرزها:

1-تداخلت الأفعال الكلامية فيما بينها في هذه القصيدة تداخلا يتعذر معه تعيين بداية ونهاية كُلٍّ منها على حدة. وهي إلى ذلك متفاوتةٌ،إذ بعضها أكثر هيمنة وأهمية في الخطاب من بعض، ونخص بذلك الفعل التعبيري.

2- هيمنةُ الأفعال التعبيرية حيث برزت الأفعال الكلامية ذات الطابع التعبيري بشكل لافت في القصيدة، ولا جدال في أن أهم هذه الأفعال "فعل التعزية"، بحكم المقام والمناسبة التي كانت وراء نظم الشاعر لهذه القصيدة وبقية الأفعال إنما هي خادمة لهذا الفعل، كما عكست في الوقت ذاته عمق التأثر والارتباط الوجداني للمتنبي بموضوع الرثاء.

3-التناغم بين الأفعال الكلامية الجزئية وخدمتها لمقصد الفعل الكلامي العام مع حاجة مُؤَوِّل الخطاب لكفاءات متعددة، لا سيما الكفاءتان اللسانية والموسوعية في فهمها فالقصيدة أظهرت انسجامًا بين اختيار الأفعال الكلامية وبين الأغراض التي يسعى المتنبي لتحقيقها سواء في التعبير عن فعل المدح أو الدعاء أو الحزن أو تقديم العزاء أو التأمل في الموت كظاهرة إنسانية.

4- توفيق المتنبي في المزاوجة بين التخييلي والإقناعي. وذلك بأن جعل الإقناعي في خدمة التخييلي، وهو ما يتفق مع كون المطلوب من الشاعر أن يؤثر لا أن يقنع؛ فالمتنبي لم يقتصر على وظيفة واحدة للأفعال الكلامية، بل وزعها بين الإخبار، التأثير، والإقناع، معتمدًا على طبيعة الموقف الحزين لإبراز فنياته البلاغية،وقد استطاع الشاعر هنا أن يؤثر من جهة الإقناع، وتلك منزلة لا يبلغها إلا الكبار من أمثال هذا الشاعر.

5- قد يتعدد "فعل الإنجاز" بالنسبة لـ"فعل القول" الواحد، بتعدد المقاصد المُحتمَلة، وإن اختلفت تلك الأفعال من حيث إنَّ بعضها مَرحَلِيٌّ وبعضها نِهائِيّ، على ما رأينا من أن الفعل الإخباري- مثلا- ينتهي بنا في النهاية إلى "فعل التعزية"، واستطاع المتنبي بهذا التعدد أن يخلق نصًا شعريًا يتفاعل مع المتلقي على المستويين العاطفي والتأملي، مستثمرًا في ذلك البعد الإنساني لموضوع الموت.

التوصيات:

وفي ختام هذه الدراسة يمكن إدراج مجموعة من التوصيات التي يمكن من خلالها إثراء مجال الدراسات البلاغية

والتداولية، وفتح آفاقًا جديدة لتحليل الشعر العربي الكلاسيكي:

1- **تعميق الدراسات التداولية للشعر العربي القديم:** ويكون ذلك بتوسيع الدراسات التي تتناول الأفعال الكلامية في النصوص الشعرية القديمة، لفهم أبعاد جديدة في البلاغة العربية.

2- **دمج التحليل البلاغي مع التداولية** :يوصى بدمج المناهج البلاغية التقليدية مع المناهج التداولية لتحليل النصوص الشعرية، لفهم الأبعاد الوظيفية للأفعال الكلامية بشكل أفضل.

3- **إبراز الأثر النفسي للأفعال الكلامية** :يمكن دراسة الأثر النفسي الذي تتركه الأفعال الكلامية في النصوص الرثائية على المتلقي في سياقات مختلفة.

4- **توسيع المقارنة بين نصوص الرثاء عند المتنبي وشعراء آخرين** :يوصى بدراسة استخدام الأفعال الكلامية في نصوص رثائية لشعراء آخرين لمقارنة الأساليب والوظائف البلاغية.

لمحة حول الكاتب

الدكتور مشتة مهدي أستاذ محاضر –أ– بقسم اللغة العربية و آدابها جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1، متحصل على شهادة دكتوراه علوم في اللسانيات و اللغة العربية.
للباحث مشاركات علمية في العديد من الملتقيات الوطنية والدولية بالجزائر و خارجها بالإضافة إلى مقالات وطنية و دولية عديدة في مجلات علمية محكمة .
رقم الأوركيد: 0009-0000-3548-332X
الدكتور دحماني عبد الرحمن متحصل على شهادة دكتوراه علوم في اللسانيات و اللغة العربية من جامعة محمد خيضر بسكرة ، أستاذ بجامعة محمد بوضياف المسيلة ، له العديد من المقالات العلمية والمؤلفات العلمية التي تهتم باللسانيات التداولية ومشاركات مختلفة في ملتقيات وطنية ودولية .
رقم الأوركيد: 0009-0001-5881-5099

التمويل: هذا البحث غير ممول.
شكر وتقدير: لا ينطبق.
تضارب المصالح: يعلن المؤلفون عدم وجود أي تضارب في المصالح.
الأصالة: هذه البحث عمل أصلي.
بيان الذكاء الاصطناعي: لم يتم استخدام الذكاء الاصطناعي أو التقنيات المدعومة بالذكاء الاصطناعي

المراجع

حافظ إسماعيل علوي. (2005). التداوليات– علم استعمال اللغة. اربد الأردن: عالم الكتب الحديث.

الدسوقي محمد بن أحمد بن عرفة. (2013). حاشية الدسوقي على مختصر السعد –شرح تلخيص المفتاح،*ط2.* –بيروت: دار الكتب العلمية .

أبو الطيب المتنبي. (1978). ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان . يروت–لبنان: دار المعرفة.

الدسوقي محمد بن أحمد بن عرفة. (2013). حاشية الدسوقي على مختصر السعد –شرح تلخيص المفتاح. –بيروت: دار الكتب العلمية .

المبخوت شكري. (2010). دائرة الأعمال اللغوية – مراجعات ومقترحات. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.

المتوكل أحمد. (1985). الوظائف التداولية في اللغة العربية. الدار البيضاء –المغرب: دار الثقافة.

المتوكل أحمد. (1986). دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي. الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع .

المتوكل أحمد. (2005). *التركيبات الوظيفية – قضايا ومقاربات–.* الرباط، المغرب: مكتبة الكرامة.

المتوكل أحمد. (2013). قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية. الجزائر: منشورات الاختلاف.

المتوكل أحمد. (2014م). الخطاب وخصائص اللغة العربية –دراسة في الوظيفة والبنية والنمط. الجزائر: منشورات الاختلاف.

مليطان محمد الحسين. (2014م). ظرية النحو الوظيفي–الأسس والنماذج والمفاهيم. الجزائر: منشورات الاختلاف.

جون لانكشو ترجمة عبد القادر قنيني أوستين. (2008م). نظرية أفعال الكلام العامة– *كيف ننجز الأشياء بالكلمات.* إفريقيا الشرق: المغرب.

دومينيك مونقانو ترجمة محمد يحياتن. (2008). المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. الجزائر: منشورات الاختلاف.

فان ديك ترجمة عبد القادر قنيني. (2000م). النص و السياق ، استقصاء البحث في السياق الدلالي التداولي . المغرب : إفريقيا الشرق.

جلال ,س .(2022) ."الخطاب القرآني ونظرية أفعال الكلام دراسة نقدية في تطبيق المنهج التداولي" .*مجلة اللغة العربية* , p. 568

معزوز عبد المجيد . (2023). "أفعال الكلام في الأمثال الشعبيّة الجزائريّة مقاربة تداوليّة". *فصل الخطاب*، صفحة 233.

مزابية ,.و & ,.دحو ,.ح .(2022) ."أفعال الكلام في "إحكام صنعة الكلام – "لابن عبد الغفور الكلاعي .*اللغة العربية* , p. 218.

يومبعي ,ج & ,.هاجر مدقن .(2023) ."أفعال الكلام غير المباشرة مقاربة تداولية في سورة الإنسان" .*مجلة المعيار* , p. 90

الاستشهاد بالمقال

مشتة مهدي، دحماني عبد الرحمن .(2025) . الفعل الكلامي وما ينطوي عليه من الأفعال في الخطاب الشعري. مقاربة تداولية في لامية أبي الطيب المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة الحمداني. *مجلة أطراس، 6*(1)، 601-586